بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة أم القرى
UMM AL QURA UNIVERSITY
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

شغف الرسول وأصحابه بحفظ القرآن

أساس تواتره

الدكتور
حسن ضياء الدين عتر

شغف القرآن قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم فدأب على الاشتغال بتلاوته واستذكاره صباحاً ومساء ؛ ليلاً ونهاراً ؛ سراً وجهاراً ؛ في سفره وحضره ؛ وجهاده وسلمه ؛ وشدته ورخائه ، فكان يقرأ القرآن تبليغاً وتعليماً وتدبراً وامعاناً ، اجلالاً لكلام الله وتقرباً اليه واهتداء بهديه ، وانتفاعاً بآياته ومواعظه في الآداب والأخلاق والحكم والأحكام . كما كان يقرؤه ويستمع اليه تعبداً وتضرعاً وخشوعاً ، تقوى وخشية ، فإنه أخشى المؤمنين لله وأتقاهم له ، فحفظَ القرآن أتقنَ حفظ .

أ ـ عوامل حفظ الرسول للقرآن العظيم :

تضافرت في حفظ سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم للقرآن عوامل كثيرة متنوعة ، وهي في نظرنا صنفان :

الصنف الأول : عناية الهية خاصة أرست القرآن بتمامه في فؤاد النبي صلى الله عليه وسلم .

١ ـ تجلّت هذه العناية العظيمة منذ سطع النجم القرآني الأول في غار حراء بواسطة ملكِ الوحي جبريل عليه السلام ، حين لقيَ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم في الغار ، فقال له : اقرأ . لقد أخذه فغطّه ثلاثَ مرات حتى أجهده وأعياه . إنَّ هذا الحدثَ العجيبَ الطارىءَ على حياةِ محمد صلى الله عليه وسلم وتكرار الغط فيه قد أثار انتباهه بقوة بالغة ، وحال بينه وبين التفكير في أيِّ غرض دنيوي أو هاجس نفسي ، فتركز اهتمامه كله فيما يُلقىٰ اليه من قرآن قدسي . تأمل ذلك في نص الحديث : (حتى جاءه الحق وهو في غار حراء ، فجاءه الملك فقال : اقرأ ، قال : ما أنا بقارىء ! قال فأخذني

فغـطَّني[1] حتى بلغَ مني الجهد[2] ثم أرسلني ، فقـال : اقرأ ، فقلتُ مـا أنا بقارىء ! فأخـذني فغطني الثـانية حتى بلغ مني الجهـد ثم أرسلني ، فقال : اقرأ : فقلت : ما أنا بقارىء ، فـأخذني فغـطني الثالثـةَ ثم أرسلني ، فقال : « اقرأْ باسمِ ربّكَ الذي خَلَقَ ، خَلَقَ الانسانِ من علق . اقرأ وربـك الأكرمُ » فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده . . .)[3] .

وتوقف نزول الوحي فترة من الزمن فأيقظتْ فترةُ الوحي كوامنَ الاهتمام ولواعج الشوق في قلب الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، فراح يـرتقب عودَهُ متلهفاً الى معرفة النور الذي سيضيء جوانحه ، حريصاً على التشبث به واستحفاظه،**والمشتاق الملهوف إلى سماع شيء ومعرفته يقوى استعـداده لحفظه ويتعاظم** . ثم عاوده الوحي بمطلع سـورة المدثـر الى قولـه تعالى ﴿ والـرجزَ فاهجر ﴾ **ثم حميَ الوحيُ وتتابَعَ . والرسول يتلقفه بهذا الشوق العظيم حتى آخر آية نزلت منه[4] فانطبع القرآن على صفحات فؤاده الطاهر النقي صلى الله عليه وسلم . فالغطّ في الغار وفترةُ الوحي بعـدئذ أثـارتا جميـع أحاسيس الـرسول ومشاعره واهتماماته وأشواقه الى تلقي الوحي الالهي المقدس واتقان حفظه .**

٢ ـ اشتد حِرصُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم على حفظ كـلام الله حتى عمدَ الى ملاحقةِ جبريل أثناء إلقاءِ الوحي عليه لفظاً لفظاً ، خشيةَ أنْ تند منه كلمة أو يتفلت حرف .

راح الرسول صلى الله عليه وسلم يحرك لسانه وشفتيه بكل ما يسمعه من

---

(١) غطني : ضمني وعصرني ، وأصل الغط : حبس النَفَسِ ، ومنه : غطَّه في الماء .

(٢) بلغ مني الجهدَ : بلغ مني الغط غايةَ وسُعي .

(٣) رواه البخاري في أول صحيحه بتمامه ـ باب كيف كان بدء الوحي الى رسول الله .

(٤) وفي قوله تعـالى : ﴿ واتقوا يـوماً تُـرجعونَ فيـه الى الله ثم تُوفي كُـلُ نفسٍ ما كسبتْ وهم لا يظلمون ﴾ سورة البقرة : ٢٨١ .

جبريل ، فتنزل الأمر الالهي على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يترك ذلك ويهتم بالاستسلام الكامل للوحي قلباً وجارحة وتفويض أمر الحفظ الى الله تعالى ، فان الله ضامن قرار القرآن كاملاً في صدرك وقراءته تماماً على لسانك يا رسول الله .

روى البخاري في صحيحه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ لا تُحركْ به لسانَكَ لِتعجلَ به إنَّ علينا جمعَهُ وقرآنَهُ فاذا قرأْناهُ فاتبعْ قرآنه ثم إنَّ علينا بيانَه ﴾[1] .

قال : كانَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يعالج من التنزيل شدة ، وكان مما يحركُ شفتيه[2] .

فقال : ابن عباس فأنا أحركهما لكم كما كان رسول الله يحركهما .

وقال سعيد : أنا أحركهما كما رأيتُ ابن عباسٍ يُحركهما ، فحرك شفتيه[3] .

فأنزل الله تعالى : ﴿ لا تُحركْ به لسانكَ لتعجلَ به . إن علينا جَمعَهُ وقرآنَهُ ﴾ .

قال : جمعُهُ لكَ في صدرِكَ وَتقرأَهُ .

(فاذا قرأناه فاتبعْ قرآنَهُ) قال : فاستمعْ له وأنصتْ (ثم إنَّ علينا بيانه) ثم إن علينا أن تقرأه .

فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك إذا أتاه جبريل استمعَ ،

---

(١) سورة القيامة : ١٦ ـ ١٩ .

(٢) يعني أنه كان يحرك شفتيه مع لسانه .

(٣) وهذه الصفة في الإسناد حملت علماء الحديث على تسميته بالحديث المسلسل . وهو : ما تتابع رجال إسناده على صفة واحدة أو حال واحدة للرواة أو للرواية (منهج النقد ٣٥٤) .

فاذا انطلق جبريلُ قرأَهُ النبي صلى الله عليه وسلم كما قَرَأَهُ)[1] .

وأَمَرَ الله رسولَه محمداً صلى الله عليه وسلم في آية أُخرى أن يُمسكَ عن متابعة جبريل في تلاوة القرآن أثناءَ تلقي الوحي وأن يكل أمر حفظه في صدره الى الله تعالى راجياً منه ازديادَ العلم بالقرآن وعدمَ النقصان بالنسيان . .

قال تعالى : ﴿ ولا تَعجلْ بالقرآنِ من قبلِ أنْ يُقضى اليك وحيُهُ وقلْ ربِّ زِدْني علماً ﴾[2] .

٣ ـ كما أكرم الله تعالى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بالوحي اليه **فقد وعده الله وعداً حسناً عظيماً باستمرار الوحي ؛ وبحفظ القرآن في صدره كاملاً ، وسلامته من أن يطرأ النسيان على شيء منه . قال تعالى ﴿ سنُقْرئك فلا تنسىٰ ﴾**[3] وهذه كفالة إلٰهية فريدة رائعة يتمكن الرسول صلى الله عليه وسلم بها من هداية العالم الى الله بكتابه الحكيم المصون عن الخلل والتحريف ، والتقديم والتأخير والزيادة والنقصان .

٤ ـ ومن تمام العناية الالهية بحفظ القرآن في صدر النبي صلى الله عليه وسلم **أن الله تعالى أمر جبريل أن يُدارسه القرآن ، وبذلك يزداد القرآن رسوخاً ويظل النبي صلى الله عليه وسلم متثبتاً من حفظه** ، وفي هذا أحاديث كثيرةٌ ، منها ما رواه الامام البخاري :

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (كان النبي صلى الله عليه وسلم أجودَ الناسِ بالخير وأجودَ ما يكونُ في شهر رمضان ، لأن جبريل كان يلقاهُ في

---

(١) رواه البخاري بلفظه في أول صحيحه : بدء الوحي ، ورواه مسلم : كتاب الصلاة . باب الاستماع للقراءة .

(٢) سورة طه : ١١٤ .

(٣) سورة الأعلى : ٦ .

كلِّ ليلةٍ في شهر رمضان حتى ينسلخ يعرضُ عليه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم القرآن ، فاذا لقيه جبريلُ كانَ أجودَ بالخيرِ من الريح المرسلة »[1] .

وعنه بلفظ : (وكان جبريلُ يلقاهُ في كلِ ليلةٍ من رمضانَ فيدارسُهُ القرآنَ) .

عن أبي هريرة قال : (كان يُعرض على النبي صلى الله عليه وسلم القرآنُ كلَّ عام مرةً ، فعُرض عليه مرتين في العام الذي قُبض فيه ، وكان يعتكف كل عام عشراً ، فاعتكفَ عشرين في العام الذي قُبض فيه)[2] .

عن عائشةَ عن فاطمة عليهما السلام : (أسرَّ إليَّ النبي صلى الله عليه وسلم أنَّ جبريل كان يعارضني بالقرآن كلَّ سنة ، وإنه عارضني العامَ مرتين ولا أُراه إلا حضر أجلي)[3] .

الصنف الثاني ـ أسبابٌ عادية ساعدتْ على تثبيت حفظ الرسول للقرآن :

ونسميها : أسباباً عادية ، لأنها بحكم العادة في حياة الناس العامة تُؤدي إلى نتيجتها الطبيعية وهي الحفظ ، فإذا زاولها النبي صلى الله عليه وسلم

---

(١) صحيح البخاري ـ كتاب فضائل القرآن جـ ٣ ص ٢٢٧ وكتاب الخلق : باب ذكر الملائكة جـ ٢ ص ٢١٣ ط عيسى البابي الحلبي بمصر . وانظر الشمائل المحمدية للترمذي ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥ ط المكتبة التجارية وانظر المدخل لدراسة القرآن الكريم ـ الدكتور محمد محمد أبو شهبة ص ٣٩٤/ ٣٩٦ .

(٢ و ٣) الحديثان في صحيح البخاري ـ كتاب فضائل القرآن . . باب كان جبريل يعرض على النبي صلى الله عليه وسلم ورواه البخاري مطولاً في علامات النبوة ، وفي باب مرض النبي ووفاته من كتاب المغازي وفي الاستئذان ـ وأخرجه مسلم في فضائل فاطمة ، وأخرجه أبو داود والترمذي والنسائي وابن حبان والحاكم .

إضافةً إلى ما حظي به من عناية إلٰهية خاصة ، كانتْ مؤازِرَةً لحفظ القرآن وتوطده في فؤاده . ونذكر من الأسباب العادية التي هيأها الله تعالى له :

١ ـ أن النبي صلى الله عليه وسلم مأمور بتبليغ الوحي . فكلما نزل عليه شيء من القرآن **أمر النبي كتّاب الوحي أن يكتبوه وأملاهُ عليهم . ومن حفظ نصاً ثم أملاه على بعض الكاتبين أو بلغه للسامعين أدى ذلك إلى قوة حفظه له وتثبته منه .**

٢ ـ أن الرسولَ صلى الله عليه وسلم هو المسؤول عن تدبير شؤون المسلمين وتنفيذ شريعة الله فيهم .

وقد جعل الله القرآن العظيم المصدر التشريعي الأول ، ولا بد للرسول الكريم كي يحقق ذلك أنْ يستعرض القرآنَ ويتأمله ملياً ويديم النظر في آياته ، ليستنبط منه الأحكام ويبين هداياته ، ويأمر بإنفاذها في حياة المسلمين العامة والخاصة ؛ وفي شؤونهم الفردية والاجتماعية والعائلية ؛ المادية والمعنوية ، فإن مهمة بيان القرآن موكولة اليه عليه السلام .

قال تعالى : ﴿ كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور بإذن ربهم الى صراطِ العزيز الحميد ﴾[١] .

وقال ﴿ وأنزلنا اليك الذكرَ لِتبينَ للناسِ ما نُزِّلَ اليهم ولعلهم يتفكرون ﴾[٢] ﴿ وأنزلنا اليك الكتاب بالحقِّ مصدقاً لِما بينَ يديهِ من الكتابِ ومُهيمناً عليه **فاحكمْ بينهم بما أنزلَ الله** ولا تتبعْ أهواءهم عما جاءك من الحق ﴾[٣] .

(١) سورة ابراهيم : ١ .

(٢) سورة النحل : ٤٤ .

(٣) سورة المائدة : ٤٨ .

٣ ـ تصدى الرسول الأمين الى تبليغ رسالة الله على أمثل صورة ممكنة طاعة لأمر الله تعالى ﴿ يا أيها الرسولُ بلِّغ ما أُنزلَ اليكَ من ربك وإنْ لم تفعلْ فما بلغتَ رسالته . والله يعصمكَ من الناسِ ، إنَّ الله لا يهدي القومَ الكافرين ﴾[1] **فعكف الرسول صلى الله عليه وسلم على تعليم الصحابة القرآن فكانوا يترددون اليه فيقرؤهم صلى الله عليه وسلم قدراً من القرآن ليحفظوه ويعملوا به** ، حتى اذا أفلحوا في ذلك عادوا الى استحفاظ القرآن من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهكذا . روى الإمام أحمد عن أبي عبد الرحمن قال : حدثنا من كان يُقرئنا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : (أنهم كانوا يقترئون من رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرَ آيات فلا يأخذونَ في العشر الأخرى حتى يعلموا ما في هذه العشر من العلم والعمل . قالوا فعلَّمنا العلمَ والعمل)[2] .

وروى محمد بن نصر عن ابن مسعود رضي الله عنه قال (كُنا إذا تَعلمنا من النبي صلى الله عليه وسلم عَشراً من القرآن لم نتعلم العشرَ التي بعدها حتى نعلمَ ما نزل في هذه من العمل) لا ريب أن هذين الحديثين وغيرهما يعرفونا بكثرة اشتغال النبي صلى الله عليه وسلم بتعليم القرآن . كما يبرهن على هذا أيضاً العدد الكبير من حفاظ الصحابة . **والاشتغال بتعليم شيء من أسباب ثبات حفظه ورسوخه على مر الزمان ، ومعروف في علم التربية قديماً وحديثاً أن التعليم من أفضل طرق التعلم** . فالرسولُ مرجع المسلمين الأول في استحفاظ القرآن ومعرفة حِكَمه وأحكامه وأسراره ومعانيه ومراميه وكيفية تطبيقه والعمل بما فيه . فكانَ حفظُ القرآن وثيقاً في صدره صلى الله عليه وسلم .

---

(١) سورة المائدة : ٦٧ .

(٢) ورواه الطبري جـ ١ ص ٨٠ وعبد الرزاق ، انظر تفسير القرطبي جـ ١ ص ٣٩ ـ ٤٠ .

٤ ـ بادر النبي صلى الله عليه وسلم الى التعبد والتقرب الى الله تعالى بالقرآن قراءة واستماعاً ، فكان القرآن العظيم شغله الشاغل في صلاته وتوجهاته وفي علانيته وسريرته وفي سفره وحضره ، وفي وحدته ومع أصحابه . عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : (اقرأْ عليَّ القرآنَ) قال : فقلتُ يا رسول الله أَقرأُ عليكَ ، وعليكَ أُنزل قال : (اني أشتهي أن أَسمعه من غيري) فقرأتُ عليه النساء حتى اذا بلغتُ (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً[1] رفعتُ رأسي ، أو غمزني رجل الى جنبي فرفعت رأسي ، فرأيتُ دموعه تسيل)[2] إنما كان اصغاء النبي صلى الله عليه وسلم للقرآن وترتيله بنفسه على سبيل التدبر والتفهم إجلالاً لله واستشعاراً لربوبيته وتعظيماً لقدرته وتأثراً بآيات الله وحكمته وما أكثر هذا في حياته صلى الله عليه وسلم حتى إنه كان يقرأ ثلاث سور طوال في صلاة واحدة . وهذا من العوامل القوية على استمرار ثباتِ الحفظ ورسوخه .

عن حذيفة قال صليت مع النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة ، فافتتح البقرة ، فقلت : يركع عند المائة ، ثم مضى ، فقلت يصلي بها في ركعة ، فمضي ، فقلت : يركع بها ، ثم افتتح النساء فقرأها ، ثم افتتح آل عمران فقرأها . يقرأ مترسلاً . إذا مرَّ بآية فيها تسبيح سبح ، وإذا مرّ بسؤال سأل ، وإذا مرَّ بتعوذ تعوَّذ . ثم ركع فجعل يقول : « سبحان ربي العظيم » فكان

---

(١) سورة النساء : ٤١ .

(٢) رواه مسلم بلفظه ـ كتاب المسافرين ـ باب فضل استماع القرآن : ورواه البخاري مطولاً ـ كتاب فضائل القرآن ـ باب البكاء عند قراءة القرآن ، ورواه مختصراً في باب من أحب أن يستمع القرآن من غيره وباب قول المقرىء للقارىء : حسبك . انظر فتح الباري جـ ٩ ص ٩٣/٩٩ ورواه الترمذي ـ تفسير القرآن ـ باب ومن سورة النساء . ورواه أبو داود ـ كتاب العلم ـ باب في القصص رقم ٣٦٦٨ .

ركوعه نحواً من قيامه . ثم قال : « سمع الله لمن حمده » ثم قام طويلاً قريباً مما ركع ، ثم سجد فقال « سبحان ربي الأعلى » فكان سجوده قريباً من قيامه[1] .

وعن عوف بن مالك الأشجعيّ رضي الله عنه قال قمتُ مع النبي صلى الله عليه وسلم ليلةً فقام فقرأ سورةَ البقرة لا يمرُّ بآيةِ رحمةٍ إلّا وقفَ وسأل ، ولا يَمرُّ بآية عذاب إلا وقف وتعوّذ ، قال : ثم ركع بقدر قيامه ، يقول في ركوعه : « سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة ثم سجد بقدر قيامه ، ثم قال في سجوده مثل ذلك ، ثم قام فقرأ بآل عمران ، ثم قرأ سورة سورة »[2] .

هناك أمر آخر ربما يستعبدُ بعضُ الناس صدورَه عن سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ! ذلك أن بعض الأحاديث في مسند الامام أحمد بن حنبل وفي سنن أبي داود **قد أفادتْ أن النبي صلى الله عليه وسلم قد التزم لنفسه جزءاً من الذكر الحكيم ، يتلوهُ يومياً لا يتركه لمشغلة من المشاغل !!** .

عن أوس بن حذيفة رضي الله عنه قال : قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في وفد ثَقِيفٍ ، فنزلت الأحلاف على المغيرةِ بن شُعْبَة ، وأنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بني مالكٍ في قبةٍ له ، قال مُسَدَّدٌ ـ وكان في الوفد الذين قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم من ثقيف ـ فكان يأتينا بعد العِشاء ، فيحدثنا قائماً حتى لَيُراوح بين رجليه من طول القيام ، وكان أكثرُ ما يحدثنا : ما لقي من قومه قريشٍ ، ثم يقول : « لا سواء ، كنا مستضعفين

(١) رواه مسلم ـ كتاب صلاة المسافرين ـ باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل .
(٢) رواه أبو داود ـ كتاب الصلاة ـ باب ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده ، والنسائي ـ كتاب افتتاح الصلاة ـ باب نوع آخر من الذكر في الركوع ، ورواه الترمذي في الشمائل .

مُستَذلِّين » ـ قال مُسدَّد : بمكة ـ فلما خرجنا إلى المدينة : كانت سجالُ الحرب بيننا وبينهم ، نُدَالُ عليهم ويُدَالون علينا ، فلما كانت ليلةٌ أبطأ عن الوقت الذي كان يأتينا فيه، فقلنا: لقد أبطأت علينا الليلة، فقال : إنه طرَأ علي جُزْئي من القرآن ، فكرهتُ أن أجيءَ حتى أُتِمَّهُ ، قال أَوسٌ : وسألت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف تُحزِّبون القرآن ؟ قالوا : ثلاثٌ ، وخمسٌ ، وسبعٌ ، وتسعٌ وإحدى عَشْرة ، وثلاث عَشْرة ، وحزب المفصَّلِ وَحْدَهُ[1] . أخرجه الامام أحمد وأبو داود وابن ماجه[1] .

والمراد : ثلاث سور هي من أول سورة البقرة الى آخر سورة النساء ، وخمس سور من أول سورة المائدة الى آخر سورة التوبة ، وسبع سور من أول سورة يونس إلى آخر سورة النحل ، وتسع سور من أول سورة الاسراء إلى سورة الفرقان ، وإحدى عشر سورة هي من أول سورة الشعراء حتى آخر سورة يس ، وثلاث عشرة من أول سورة الصافات إلى آخر سورة الحجرات ، والمفصل عبارة عن السُبع الأخير من القرآن ـ أي من سورة (ق) حتى الأخير . وهو على ثلاث أقسام : طوال وأوساط وقصار ، كما هو مفصل في كتب الفقه[2] .

أجل هذه الطريقة المأثورة ، كما رأيتَ ؛ عن أصحاب رسول الله صلى

---

(١) المراد في الحديث بـ « الأحلاف » : قوم من ثقيف . فهم فرقتان : بنو مالك والأحلاف . و «سجال الحرب»: التعادل فيها بيننا وبينهم مرة لنا ومرة لهم .

« نُدال عليهم » : نُنصر عليهم .

« يُحزِّبون » من الحزب : القدر الذي يحدده الانسان لنفسه من قراءة أو صلاة . وفي الحديث فوائد ثمينة للمخلصين في الدعوة إلىٰ الله تبارك وتعالى . رواه أبو داود في سننه ـ كتاب الصلاة ـ باب تحزيب القرآن ـ وابن ماجه ـ كتاب إقامة الصلاة ـ باب كم يستحب ان يختم القرآن . وانظر مختصر سنن أبي داود للمنذري جـ ٢ ص ١١٣/١١٤ .

(٢) تلاوة القرآن المجيد ـ عبد الله سراج الدين ص ١٠٥ ـ ١٠٦ ، ط ثالثة . المدينة المنورة .

الله عليه وسلم في تحزيبِ القرآن ما هي إلا التزام أن يقرأ الواحد منهم كل يوم حظاً من القرآن فلا يمضي من عمره أسبوعٌ واحد الا ويختم فيه القرآن مرةً واحدةً على الأقل .

وهذا الالتزام الدوري المستمر يكفل تمكُّنَ القرآن العظيم في صدورهم ، ويشير إلى أن حفظ القرآن كان ظاهرة عامة في الصحابة ، إذْ لم تكن المصاحفُ بين أيديهم . كما يشير إلى مزيد عنايتهم بكلام الله ، إذ أَوْلَوْهُ هذا القسط الوافر من حياتهم واهتمامهم ، فأكرمهم الله بالعزِّ والسعادة في الدنيا وبالجنةِ في الآخرة ، وكانوا أحق بها وأهلها .

ب ـ عوامل حفظ الصحابة للقرآن العظيم

عمد الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم الى تبليغ رسالة الله ووقف ليله ونهاره وحياته كلها لذلك ، فما تتنزل عليه آيات من القرآن الا أقرأها أصحابه واستحفظهم إياها . كما كان يدعو كتاب الوحي ، فيأمرهم بكتابتها . وما كان عليه الصلاة والسلام يكتفي باقرائهم واستحفاظهم ، بل يفقههم أيضاً كلام ربهم ، ويرشدهم إلى التأدب بآدابه والعمل بشريعته والاستقامة على أمره ، كما بيّنا ذلك سابقاً .

امتلك القرآن العظيم مجامع قلوب الصحابة وأفئدتهم ، فأنزلوه المنزلة العليا ، حتى أخذ أكبر اهتمامهم وأولاه ، وصار شغلهم الشاغل حفظاً وتلاوةً وفهماً وعملاً ودعوةً وتعبداً . فالقرآن المجيد عبادتهم في ليلهم ونهارهم ، مؤنسهم في وحشتهم وغربتهم ، صاحبهم في أسفارهم وأحضارهم ، مرجعهم الوثيق في أمور دنياهم ودينهم ، زادهم في الرحلة الى الآخرة ، أرجى قرباتهم إلى ديان السموات والارض ، يسعون جادين باخلاص إيماني روحي عميق إلى امتثال أوامره والامتناع عن إتيان ما نهاهم الله عنه ، ولو كان

المحظور من شهواتهم ولذائذهم المألوفة من قبل . فالقرآن الحكيم ميزان نواياهم وأعمالهم وتصرفاتهم في السلم والحرب ، بل القرآن العظيم دستور حياتهم وشؤونهم كلها، ما ظهر منها وما بطن وهكذا استقر القرآن في أذهانهم وحوافظهم ، إذْ تضافرت على ذلك عوامل كثيرة ، نذكر أهمها :

١ ـ تمهل الرسول صلى الله عليه وسلم في تلاوته :

في بواكير نجوم الوحي أمر الله تعالى نبيه المصطفى بالتمهل في تلاوة القرآن العظيم . قال الله تعالى في مطلع سورة المزمل : ﴿ ورتل القرآن ترتيلاً ﴾[١] يعني : اقرأ القرآن قويماً بتمهل وروية ، حتى تُوفي القراءة حقوقها في نطق الحروف والتزام الوقف وإشباع الحركات . وهذا أدعى لأن يحفظ السامع القرآن ويفهمه ويتدبره ؛ وأعون على توقير كلام الله وتعظيمه ، فيقوى تأثيره في القلب ويشتدُّ تمكنه في الذاكرة .

قال الإمام ابن كثير : « وقوله ﴿ ورتل القرآن ترتيلاً ﴾ أي اقرأه على تمهل ، فانه يكون عوناً على فهم القرآن وتدبره »[٢] .

ثم أكَّد الحق تبارك وتعالى هذا التوجيه الرباني الحكيم ؛ إذ أنزل فيما بعد في مكة المكرمة أيضاً قوله تعالى : ﴿ وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مُكْثٍ ونزَّلناه تنزيلاً ﴾[٣] أي أنزلنا القرآن إليك يا رسول الله منجماً ، مفرقاً حسب الوقائع ، في ثلاث وعشرين سنة « ﴿ لتقرأه على الناس على مكث ﴾ أي على تُؤدة وتأن فإنه أيسر للحفظ وأعون على الفهم »[٤] . ﴿ ونزلناه

(١) سورة المزمل : ٤ .
(٢) تفسير القرآن العظيم : جـ ٨ ص ٢٧٦ .
(٣) سورة الاسراء : ١٠٦ .
(٤) روح المعاني جـ ١٥ ص ١٨٨ .

تنزيلاً ﴾ : أنزلناه تدريجاً ، شيئاً بعد شيء[1] .

أجلْ ! لقد أنزل الله القرآن العظيم نجماً إثر نجم وفقاً لمقتضى الحكمة الإلهية في الهداية وتكوين المجتمع المسلم . ولقد يسر جلت عظمته تعلم القرآن مدى الدهر ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدَّكر ﴾[2] ومن ذلك أنه تعالى فصَّله آيات وسوراً ، ليتيسر للمؤمنين تلقيه وحفظه وتلاوته آناء الليل وأطراف النهار ، كما يسر عليهم بذلك أن يُعلِّموه إخوانهم وأهليهم وأولادهم . . .

بالغ الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم في التزام طريقة التلاوة التي أمره الله بها. روى الترمذي أن أم سلمة زوجة النبي صلى الله عليه وسلم سُئِلت عن قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلاته ؟ فقالت : « ما لكم وصلاتَهُ ؟ ! كان يصلي ثم ينام قدر ما صلى ، ثم يصلي قدر ما نام ، ثم ينام قدر ما صلى ، حتى يصبح . ثم نعتتْ قراءتَهُ ، فإذا هي تنعتُ قراءة مُفسَّرةً حرفاً حرفاً »[3] .

ورواه أبو داود بنحوه، وآخره بلفظ : « فإذا هي تنعت قراءته حرفاً حرفاً »[4]

ورواه النسائي مختصراً قالت: « ما لكم وصلاته ، ثم نعتت قراءته فاذا

---

(١) روح المعاني جـ ١٥ ص ١٨٩ وتفسير القرآن العظيم جـ ٥ ص ١٢٥ .

(٢) سورة القمر : ١٧ و ٢٢ و ٣٢ و ٤٠ .

(٣) والقراءة المفسَّرة : الواضحة حروفها بحيث لا يطغى حرف على آخر ، بل يُعطى كلُّ حرفٍ حقه في النطق . والحديث أخرجه الترمذي ـ أبواب ثواب القرآن ـ باب ما جاء كيف كانت قراءة النبي صلى الله عليه وسلم .

(٤) سنن أبي داود ـ كتاب الصلاة ـ باب استحباب الترتيل في القراءة جـ ٢ ص ٧٤ ط مصر .

هي تنعت قراءة مفسرة ؛ حرفاً حرفاً »[١] .

وأخرج البخاري عن قتادة رحمه الله قال : « سئل أنس : كيف كانت قراءة النبي صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : كانت مداً . ثم قرأ : بسم الله الرحمن الرحيم . يمد ببسم الله ، ويمد بالرحمن ، ويمد بالرحيم »[٢] .

ورواه النسائي عن قتادة قال : « سألت أنساً كيف كانت قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : كان يمد صوته مداً »[٣] .

يفيدك حديث أنس أن قراءة النبي صلى الله عليه وسلم كانت ذات مد . قال الإمام السندي : « قوله : (يمد صوته مداً) أي يطيل الحروف الصالحة للإطالة يستعين بها على التدبر والتفكر وتذكير من يتذكر »[٤] .

وقد سمع بعض الصحابة الرسول الكريم يُشبع المَدَّ في موضعه اللائق . وهذا ما يسمى الترجيع . روى البخاري عن عبد الله بن المغفل المزني قال : « رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح على ناقة له ، يقرأ سورة الفتح ـ أو من سورة الفتح ـ قال : فرجَّع فيها . قال : ثم قرأ معاوية يحكي قراءة ابن مغفل ، وقال : لولا أن يجتمع الناسُ عليكم لرجَّعتُ كما رجّع ابن مغفل يحكي قراءة النبي صلى الله عليه وسلم .

فقلت لمعاوية : كيف كان ترجيعه ؟ قال : آ آ آ ثلاث مرات »[٥] .

---

(١) أخرجه النسائي ـ كتاب الصلاة ـ باب تزيين القرآن بالصوت جـ ٢ ص ١٨١ .

(٢) صحيح البخاري ـ كتاب فضائل القرآن ـ باب مد القراءة . انظر فتح الباري جـ ٩ ص ٩١ .

(٣) سنن النسائي ـ كتاب الصلاة ـ باب مد الصوت بالقراءة ـ جـ ٢ ص ١٧٩ .

(٤) حاشية السندي على سنن النسائي جـ ٢ ص ١٧٩ .

(٥) صحيح البخاري ـ كتاب التوحيد ـ باب ذكر النبي صلى الله عليه وسلم وروايته عن ربه ـ على هامش فتح الباري جـ ١٣ ص ٥١٢ وانظر فيه ص ٥١٥ .

ورواه البخاري عن عبد الله بن مغفل قال : « رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ وهو على ناقته ـ أو جمله ـ وهي تسير به ، وهو يقرأ سورة الفتح ـ أو من سورة الفتح ـ قراءة لينة ، يقرأ وهو يُرجِّع »[1] .

ويقف رسول الله صلى الله عليه وسلم في تلاوته على رؤوس الآي . فقد ورد أنه كان يُقَطِّع قراءته آيةً آيةً . من ذلك ما رواه أبو داود عن أم سلمة « أنها ذكرت قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم : (بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم . مٰلك يوم الدين) يُقطِّعُ قراءته آية آية »[2] .

---

(١) قال الامام ابن حجر: « قوله (باب الترجيع) : هو تقارب ضروب الحركات في القراءة ، وأصله الترديد ، وترجيع الصوت ترديده في الحلق ، وقد فسره . . . في حديث عبد الله بن مغفل المذكور في هذا الباب في كتاب التوحيد بقوله : « أ آ أ بهمزة مفتوحة بعدها ألف ساكنة ثم همزة أخرى » .

وقال العلامة علي القاري « الأظهر أنها ثلاث ألفات ممدودات » .

وروى الحديث البخاري في كتاب فضائل القرآن ـ باب الترجيع ، ورواه فيه مختصراً ـ باب القراءة على الدابة . ورواه في كتاب المغازي ـ باب أين ركز النبي صلى الله عليه وسلم الراية يوم الفتح ، روراه في كتاب التفسير ـ سورة الفتح .

وروى الحديث الامام مسلم ـ كتاب صلاة المسافرين ـ باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن . ورواه أبو داود ـ كتاب الصلاة ـ باب استحباب الترتيل في القراءة .

قال الإمام ابن حجر « وقد ثبت الترجيع في غير هذا الموضع ، فأخرج الترمذي في « الشمائل » والنسائي وابن ماجه وابن أبي داود واللفظ له من حديث أم هانىء : « كنت أسمع صوت النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ وأنا نائمة على فراشي يُرَجِّعُ القرآن » . . .

« وقال الشيخ أبو محمد بن أبي جمرة : معنى الترجيع تحسين التلاوة ، لا ترجيع الغناء ، لأن القراءة بترجيع الغناء تنافي الخشوع الذي هو مقصود التلاوة»١ هـ فتح الباري جـ ٩ ص ٩٢ وانظر فيه ج ١٣ ص ٥١٥ . وانظر جامع الاصول جـ ٢ ص ٤٦٤ .

(٢) سنن أبي داود ـ كتاب الحروف والقراءات ـ رقم ٤٠٠١ جـ ٤ ص ٣٧ .

إن فعالية هذه الطريقة في التلاوة في قلوب السامعين وحوافظهم جلية للناظر المتأمل . وراح الصحابة يحاكونها في تلاوتهم للقرآن ويوصون بها . وإليك وصية الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود ـ وهو سادس ستة في الإسلام ؛ ومقريء أهل العراق أيام الخلافة الراشدة ـ إذْ قال :

« لا تنثروه نثرَ الرمل ، ولا تهذوه هذَّ الشعر . قفوا عند عجائبه ، وحركوا به القلوب ، ولا يكنْ هَمُّ أحدكم آخر السورة » رواه البغوي[1] .

وسرى نسق تلاوة النبي صلى الله عليه وسلم الى طريقته في التحدث عامة ، فقد تميز حديثه صلى الله عليه وسلم بطابعه الخاص مبالغةً في الترتيل والتفهيم . فلم يكن يسرد الكلام سرداً سريعاً على نحو طريقتنا ، بل كان يتأنى كلمة كلمة ، فلو عدَّ السامع كلماته لأحصاها . وبذلك يحفظه من أصغى إليه ، إذ يتمكن من إعادته في نفسه وتثبيته في ذهنه .

روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها « أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يُحدِّثُ حديثاً لو عدَّهُ العادُّ لأحصاه » .

وأخرج البخاري عنها أيضاً « . . إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يسرد الحديث كسردكم »[2] وفي رواية الاسماعيلي زيادة : « إنما كان حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلاً تفهمه القلوب »[3] .

---

(١) قوله « لا تهذوه هذَّ الشعر » : لا تسرعوا في تلاوته كما تسرعون في قراءة الشعر . انظر تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ٢٧٧ .

(٢) صحيح البخاري ـ كتاب المناقب ـ باب صفة النبي صلى الله عليه وسلم ـ على فتح الباري جـ ٦ ص ٥٦٧ وانظر فيه جـ ٦ ص ٥٧٨ ورواه مسلم ـ كتاب فضائل الصحابة ـ باب من فضائل أبي هريرة . ورواه أبو داود ـ كتاب العلم ـ باب في سرد الحديث جـ ٣ ص ٣٢٠ .

(٣) فتح الباري جـ ٦ ص ٥٧٨ .

وفي رواية الترمذي عن عائشة قالت : « ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسرد الكلام كسردكم هذا ، ولكنه كان يتكلم بكلام يُبيّنه ، فصل ، يحفظه من جلس إليه »[1] .

إن طابع تلاوة الرسول للقرآن وطريقته الخاصة في التحدث من أعظم العوامل التي ساعدت الصحابة على حفظ القرآن العظيم وكذا على حفظ السنة النبوية ، وهي مبينة للقرآن ، فتمت بذلك النعمة العظمى على المؤمنين .

٢ً ـ نزول القرآن مفرقاً وتكرار الرسول تلاوته في مواقف كثيرة :

وفي الصلوات الجهرية ، كما أوردنا آنفاً . وكان يخطب الجمعة أحياناً بسورة من القرآن ، من ذلك ما روته أم هشام بنت حارثة قالت : (لقد كان تنورُنا وتنورُ رسول الله صلى الله عليه وسلم واحداً سنتين ـ أوْ سنةً وبعض سنة ـ وما أخذتُ (قٓ . والقرآن المجيد) إلا عن لسانِ رسول الله صلى الله عليه وسلم . كان يقرؤُها كل يوم جمعة على المنبر إذا خطب الناس)[2] .

٣ً ـ قوة التلهف النفسي إلى القرآن :

كان العرب في جهالة قاتمة فأخرجهم الله تعالى ببعث الرسول الكريم وأنوار القرآن العظيم من الذلة لحجارة لا تضر ولا تنفع ، فصانهم من أن تنحني هاماتهم وتخنع كراماتهم للاصنام واستنقذهم من الزنا والربا ووأد البنات ، ومن شريعة الغزو وسبي النساء والاولاد وبيعهم عبيداً في سوق

---

(١) جامع الترمذي ـ كتاب المناقب ـ باب رقم ٢٠ ـ الحديث رقم ٣٦٤٣ .

(٢) رواه الامام مسلم بلفظه ـ كتاب الجمعة ـ باب تخفيف الصلاة والخطبة ـ رقم « ٢٥٢/٨٧٣» . ورواه أبو داود بنحوه ـ كتاب الصلاة ـ باب الرجل يخطب على قومه جـ ١ ص ٢٨٨رقم «١١٠٠ و ١١٠٢ » ورواه النسائي مختصراً ـ كتاب الجمعة ـ باب القراءة في الخطبة .

النخاسة ، ومن جميع أنماط الضلال ومفاسد الجاهلية التي كانوا يحشرجون فيها . فلما سطع عليهم نور الله تعالى في كتابه المجيد تنفسوا الصعداء واستشعروا نسيم السعادة الإيمانية وأريجها الطيب وأدركوا عظمة هذا الكلام الإلهي المقدس ، **فغدت نفوسهم تتلهف في اشتياق دائم إلى كل كلمة قرآنية ينبس بها رسول الله مبلغاً عن ربه عز وجل ، لما نالوا من رقي وسمو ومكارم وفضائل بالقرآن الحكيم** . والانسان عامة حين يتلقى ما تتلهف نفسه إليه وتشوق له ، يتلقاه باهتمام وانتباه ، تكون معه صفحة فؤاده وذاكرته منفتحة تماماً ، متأهبة لأكمل استيعاب . فما بالك بالصحابة وقد فاض من أعماقهم الحب العظيم الخالص لله تعالى وكتابه العزيز ولرسوله الكريم صلى الله عليه وسلم !؟

٤ً ـ قوة العنصر الفكري عند العرب :

أبت أنفس العرب الا التحرر والاستقلال ، فلم يلجئوا الى الفرس والرومان ، ليحظوا في كنف دولتيهم بالرغد والرفاه ، بل ارتضوْا أن يعيشوا حياة بسيطة بين الصحراء والسماء تحت الشمس الساطعة ، متخففين من تكاليف العيش ؛ مقتصرين على التمر والماء أو اللبن وكسيرات الخبز أحياناً . فلم يُبتلوا بمشاكل ومشاغل الحياة المدنية ، وما يقترن بها من بعثرة النفس وشتات الذهن وارتباك البال ، كما نلاحظ في عصرنا . **فبساطة عيشهم وسلامة بيئتهم الطبيعية ونقاء هوائهم ؛ يَسَّر لهم الصفاء وتفتح الاذهان . فكانوا أصحاب موهبة مشهورة بوفرة الذكاء وقوة الحافظة . وأعان على تقوية الذاكرة أيضاً أنهم أميون لا يقرؤون ولا يكتبون . فكانوا فيما يهمهم من أمور يعولون على الذاكرة كلياً . لأنها وسيلتهم الوحيدة للحفظ** . فذاكرتهم ذات دربة ومران ، لقد اعتادوا على حفظ ما يسمعون ، فغدوا بذلك حفاظاً متقنين ؛ ذوي أذهان يقظة وذكاء وقّاد ، يتمتعون بخصائص العروبة الكاملة ، فقلوبهم

هي كتبهم ، وعقولهم سجلاتُ أنسابهم ووقائعهم وأيامهم ، وحوافظهم هي دواوين أشعارهم ، فلما بهرهم القرآن بقوة بيانه منحوه كل مواهبهم لاتقان حفظه وفهمه . فالأُمية عامل مساعد للحفظ ، وهي وصف مشترك بين سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين قومه، وقد تعلموا الكتابَ والحكمةَ على الرغم مما كانوا عليه من أُميّة . قال الله تعالى : ﴿ هو الذي بعثَ في الأُمّيين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويُزكيهم ويعلمهم الكتابَ والحكمةَ وانْ كانوا من قبلُ لَفِي ضلالٍ مبين ﴾[1] .

٥ـ دأَبَ العرب على الافتنان بالقول نثراً وشعراً وخطابة وحكمة وأمثالاً ،

وهم يتعشقون الكلام البليغ ، ويولعون بحفظه وروايته . **فلما تنزل القرآن المجيد وتحداهم وحيرهم وأعجزهم ، أدركوا بداهة بسجيتهم البيانية الأصيلة جمال أسلوبه وجلاله ، فاجتذبهم لألاؤه** ، وملك أزمة أفئدتهم ومفاتيح قلوبهم تألق فصاحته وروعة بلاغته . **إن إعجاز القرآن قد جعلهم يقبلون بشغف وحرص على حفظه** . وينهلون من رحيقه إرواء لظمأ قلوبهم وأرواحهم . ولا عجب فاننا في هذا الزمان نتذوق البيان الأدبي الجميل ، ونعكف على التنعم بحلاوته . ولذلك نعتني بالكتب الأدبية والمقالات الشَيّقةِ ، فكيفَ بالعرب المولعين بفن القول ، وقد جاءهم كلام الله بروائع البيان المعجز فأذهلهم وسلب ألبابهم !!

(١) سورة الجمعة : ٢ وانظر : مناهل العرفان في علوم القرآن جـ ١ ص ٢٨٤/٣٠٨ .

٦ً ـ تأملَ الصحابة مليـاً قول الله تعـالى : ﴿ وكذلـك أنزلنـاه حكماً عربياً ﴾[١] :

وقوله تعـالى ﴿ ومن لم يحكم بما أنـزل الله فأولئـك هم الكافـرون ﴾ ﴿ . . فأولئك هم الظالمون . . فأولئك هم الفاسقون ﴾[٢] كما تأملوا خـطابه تعالى لسيد رسله :

﴿ فـاحكمْ بينهم بما أنـزل الله ولا تتبعْ أهـواءهم . . . ﴾[٣] وأيقنوا أن نهج سعادتهم في الدنيا والآخرة هو العمل بكتاب الله . فهو المصدر التشريعي الالهي الـذي يجب أن يحكم في أقوالهم وأفعـالهم واتجاهـاتهم ونوايـاهم ، ويجب أن تنتظم أمور دولتهم على نظامه وتشـريعه ، وأنـه القول الفصـل في مختلف الآراء وفيما يشجر بينهم من خصومات .

ومعلوم أنَّ عمل الانسان بقولٍ من الأقوال يُقوي حفظه ويثبت ألفـاظه ومعانيه ومراميه في ذاكرته، فكيف وقد قام الصحابة بتـطبيق القرآن في واقـع حيـاتهم خير قيـام ، وظلوا عاكفين على حفـظه ودراسته وتـلاوته آنـاء الليـل وأطراف النهار ، فوثقوا من جريانه على ألسنتهم أيما استيثاق .

٧ً ـ قوةُ الدافع الايماني الروحي في أصحاب النبي صلى الله عليـه وسلم :

١ ـ حضَّ الله تبارك وتعالى عباده المؤمنين على تلاوة القرآن ، وذكرهـا في مقـدمة أجـلِّ العبادات والقـربات التي رتب عليهـا عظيم الثـواب ، فهي

(١) سورة الرعد : ٣٧ .

(٢ ـ ٣) سورة المائدة : ٤٤ ـ ٤٨ .

التجارة الرابحة التي لا تبور ، ينال صاحبها ثوابه ، ويزيده الله فوق ثواب أعماله من فضله وجوده وإنعامه قال الله تعالى : ﴿ إنَّ الذين يتلونَ كتابَ اللهِ وأقاموا الصلاةَ وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانيةً يرجونَ تجارةً لن تبورَ لِيُوفيهم أُجورهم ويزيدَهم من فضله . . إنه غفور شكور ﴾[1] .

٢ ـ وقد حدث الرسول الأمين صلى الله عليه وسلم أصحابه أحاديث كثيرة ، بين فيها فضل قراءة القرآن وتعلمه وتعليمه ، وانها من أسباب النجاة يوم الفزع الاكبر ، حيث لا ينفعُ مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم . روى عبد الله بن مسعود أن سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم قال : (من قرأ حرفاً من كتابِ الله تعالى فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها . لا أقول « آلم » حرف ، ولكنْ « ألفٌ » حرف و « لامٌ » حرف و « ميمٌ » حرف)[2] .

عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إنَّ لله أهلين من الناس) قالوا : يا رسول الله ! من هم؟ قال : هم أهلُ القرآن ؛ أهلُ الله وخاصته)[3] ويكفيك فضلاً أنْ تصيرَ من أهلِ القرآنِ فتحظى بشرف هذه النسبةِ إلى الله أكرم الاكرمين .

روى البخاري من طريق سعد بن عبيدة عن أبي عبد الرحمن السُلمي عن عثمان رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال (خيركم من تعلم القرآن وعلَّمه) قال : وأقرأ أبو عبد الرحمن في إمرة عثمان حتى كان

---

(١) سورة فاطر : ٢٩ / ٣٠ .

(٢) رواه الترمذي ـ كتاب ثواب القرآن ـ باب ما جاء فيمن قرأ حرفاً من القرآن .

(٣) رواه النسائي وابن ماجه واللفظ له ـ مقدمة سنن ابن ماجه ـ باب فضل من تعلم القرآن وعلمه . وقوله « أهلين » جمع : أهل . « هم أهل القرآن » : حفظته العاملون به .

الحجاج ، قال : « وذاك الذي أقعدني مقعدي هذا »[1] .

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقال لصاحب القرآن : اقرأ وارْقَ ورتّلْ كما كنتَ تُرتل في دار الدنيا ، فان منزلك عند آخر آية تقرأ بها »[2] .

روى البخاري ومسلم واللفظ له عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة . والذي يقرأ القرآن ويتعتع فيه وهو عليه شاق ؛ له أجران)[3] .

روى مسلم عن أبي أمامة الباهلي قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (اقرؤوا القرآن فانه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه) . اقرؤوا الزَّهراويْن ، البقرة وسورة آل عمران ، فانهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان ، أو كأنهما غيايتان ، أو كأنهما فِرقان من طير صوافَّ ، تحاجان عن أصحابهما . اقرؤوا سورة البقرة ، فان أخذها بركة وتركها حسرة ولا يَستطيعها البطلة) .

---

(١) رواه البخاري والترمذي وأبو داود ، واللفظ للبخاري ـ كتاب فضائل القرآن ـ باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه ، وفي جامع الترمذي ـ كتاب ثواب القرآن ـ باب ما جاء في تعليم القرآن ، وفي سنن أبي داود ـ كتاب الصلاة ـ باب في ثواب قراءة القرآن .

(٢) رواه الترمذي ـ كتاب ثواب القرآن ـ باب رقم ١٧ ، وأبو داود ـ كتاب الصلاة ـ باب استحباب الترتيل في القراءة ، والإمام أحمد جـ ٢ ص ١٩٢ .

(٣) رواه البخاري في كتاب التفسير ـ تفسير سورة عبس ، ومسلم ـ كتاب صلاة المسافرين ـ باب فضل الماهر بالقرآن والذي يتعتع فيه . ورواه الترمذي ـ كتاب ثواب القرآن ـ باب ما جاء في فضل قارىء القرآن ، وأبو داود ـ كتاب الصلاة ـ باب في ثواب قراءة القرآن .

« الماهر بالقرآن » الحاذق الكامل الحفظ « السفرة » : جمع سافر ، وهو الكاتب ، والمراد بهم : الملائكة الحفظة . « البررة » جمع بار ، وهو الصادق ، وهم الملائكة . « يتعتع فيه » : يتردد فيه .

قال معاوية ابن سلاَّم من رواة الحديث : بلغني ان البطلة السحرة[1] .

٣ ـ لم يكتف الرسول الأمين صلوات الله وسلامه عليه بشحذ همم أصحابه لحفظ القرآن وتعليمه والاكثار من قراءته والتزام العمل به ، بل حذّر من نسيانه بفتور النشاط عن مذاكرته . روى البخاري عن أبي موسى الأشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال (تعاهدوا القرآن ، فوالذي نفسي بيده لهو أشد تفصياً من الابل في عقلها) وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إنما مثل صاحب القرآن كمثل صاحب الإبل المُعقَّلة ، إن عاهد عليها أمسكها ، وإن أطلقها ذهبت)[2] .

وعن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (عُرضتْ عليّ أجور أمتي ، حتى القذاة يُخرجها الرجل من المسجد ، وعُرضت عليّ ذنوب أمتي ، فلم أرَ فيها ذنباً أعظم من سورة من القرآن ـ أو آية ـ أُوتيها رجل ثم نسيها) أخرجه أبو داود والترمذي[3] .

وترى في هذه الأحاديث تحذيراً بليغاً لطلاب العلم في كل زمان عن التساهل في مذاكرة ما حفظوه من القرآن . ومن المؤسف أنْ يصير نسيان

---

(١) صحيح مسلم ـ كتاب صلاة المسافرين ـ باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة .
« الغمامة والغياية » : كل شيء أظل الانسان فوق رأسه : سحابة أو غيرها .
« كأنهما فرقان من طير صواف » : فرقان : جَمعان ، صواف : جمع صافة : باسطة أجنحتها في الهواء .

(٢) الحديثان في صحيح البخاري ـ كتاب فضائل القرآن ـ باب استذكار القرآن وتعاهده .
« تفصياً » : تفلتاً « عُقلها » جمع عقال : وهو الحبل الذي يشد في ركبة البعير (فتح الباري جـ ٩ ص ٧٩) .

(٣) رواه أبو داود ـ كتاب الصلاة ـ باب في كنس المسجد ، والترمذي ـ كتاب ثواب القرآن ـ باب ما تقرب العبد بمثل القرآن ـ وفي سنده مقال .

القرآن آفةً عامةً فيهم في زماننا خاصة ، إلا من رحم الله ، وهم قليل . ولا حول ولا قوة إلا بالله ـ .

٤ ـ تولى النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه تكريم حفظة القرآن وتقديم المكثرين البارعين منهم على اخوانهم في المقامات العالية والمراكز المسئولة . فقد ولاهم امامة الصلاة كما في حديثه الصحيح صلى الله عليه وسلم (يَؤُمُّ القومَ أَقرؤُهم لكتابِ الله . . .)[١] .

وجعل صلى الله عليه وسلم الامارة لحفاظ القرآن في السرايا والبعوث . قال أبو هريرة رضي الله عنه : (بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثاً وهم ذوو عدد فاستقرأهم ، فقرأ كل رجل منهم ما معه من القرآن ، فأَتى على رجل من أحدثهم سناً . فقال : ما معك أنت يا فلان ؟ فقال معي كذا وكذا وسورة البقرة . قال صلى الله عليه وسلم (أمعك سورةُ البقرة ؟) قال : نعم قال صلى الله عليه وسلم : (**اذهبْ فأَنتَ أميرهم** ، فانها إن كادت لتستحصي الدينَ كلَّه) فقال رجل من أشرافهم : والله ما منعني يا رسول الله أنْ أتعلمها إلا خشيةَ أن لا أقومَ بما فيها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (تعلموا القرآن ، وعلِّموه ، واقرؤوه ، وقوموا به ، فان مثل القرآن ؛ لمن تَعلَّمهُ فقرأه وقام به ؛ كَمثلِ جِراب مَحْشوٍّ مِسكاً يفوح ريحُه في كل مكان ، ومثلَ من تعلمه ويرقد في جوفه كمثل جِراب أُوكي على مِسْكٍ)[٢] .

وتتجلى لنا الحكمة البليغة من هذا التصرفِ الحصيف إذا تذكرنا أن

---

(١) رواه الامام مسلم في صحيحه .

(٢) رواه الترمذي ـ ثواب القرآن ـ باب ما جاء في فضل سورة البقرة وآية الكرسي . وقوله (أُوكي) : الايكاء: الشدّ .

القارىء في مفهومهم هو الحافظُ للقرآن العالم بمعانيه وأحكامه . وقد كانوا ـ كما علمتَ آنفاً ـ يحفظون القرآن أيامَ النبي صلى الله عليه وسلم ؛ علماً وعملاً . فأكثرهم قراءةً للقرآن (حفظاً وعلماً) هو أعلمهم بتدبير الأمور وفق شرع الله تعالى . أما ترى الناسَ في هذا الزمانِ يعدون منْ حفظ كتابَ تفسير عالماً ! فلا ريب أن العربي الخالص إذا حفظ القرآن علماً وعملاً أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم صار عالماً جليلاً . لذا نجد أقرأهم هو أولاهم بالتقدم في الصلاة وبالامارة عليهم وبالشورى في أمور دولتهم وحياتهم ، كما ورد في صحيح الامام البخاري في مطلع حديث طويل (وكان القراءَ أصحاب مشورة عمر رضي الله عنه)[1] .

وتجد رسول الله صلى الله عليه وسلم يفاضل بين شهداء الصحابة حسب حفظهم للقرآن حين الاضطرار الى دفن المجموعة منهم في قبر واحد ، فيؤثر أكثرهم حفظاً لكتاب الله تعالى بالتقدم في اللحد . وهذا واضح فيما رواه البخاري في صحيحه في غزوة أُحد . وإليك فيها رواية ابن اسحاق : (ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أشرف على القتلى يوم أحد قال : أنا شهيد على هؤلاء أنه ما من جريح يُجرح في الله الا والله يبعثه يوم القيامة يدمى جرحه ، اللون لون دم والريح ريح مسك ، انظروا أكثر هؤلاء جمعاً للقرآن فاجعلوه أمام أصحابه في القبر ـ وكانوا يدفنون الاثنين والثلاثة في القبر والواحد)[2] .

---

(١) صحيح البخاري ـ كتاب الاعتصام ـ باب « وأمرهم شورى بينهم » وانظر البيان في مباحث من علوم القرآن لأستاذنا الجليل عبد الوهاب غزلان رحمه الله ص ١٤٧/١٥٩ والمدخل ص ٤١٣ وما حولها .

(٢) سيرة ابن هشام ص ١٠٣ ـ ١٠٤ ط ٣ دار احياء التراث العربي ـ لبنان وقارن بصحيح البخاري ـ كتاب المغازي ـ باب المغازي من قُتل من المسلمين يوم أُحد .

٥ ـ ان هذه المنزلة التي خصَّ النبيُّ صلى الله عليه وسلم بها القراءُ ، تفيد أنها محل ثقة النبي صلى الله عليه وسلم ومركز الأمانة على تنفيذِ شريعةِ رب العالمين في أتم الصور . ولا ريبَ أنه شرف عظيم أن يحوز عند رسول الله الإنسان ثقة تُخوّله قيادة النموذج الرفيع من الربانيين ، وهم أصحاب سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم .

ان هذا المغذى الكريم كان يدعو الصحابة الى التسابق والتنافس المثالي في الاقبال على حفظ القرآن . أضف إلى ذلك بيان الرسول صلى الله عليه وسلم مضاعفة الثواب لامام الصلاة والثواب العظيم للامام العادل والامارة العادلة .

تعليم الصحابة القرآن لإخوانِهم :

الرسول صلى الله عليه وسلم هو الأُسوة الحسنة للصحابة في حفظ القرآن والاكثار من تلاوته قالت أم هانىء : (كنتُ أسمعُ قراءةَ النبي صلى الله عليه وسلم من الليلِ وأنا على عريشِ أهلي)[1] ورسول الله قدوتهم في تعليمه أيضاً وفي الاستماع اليه فقد ورد في الحديث الصحيح استماعه لقراءة عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه . وقد اقتفى الصحابة الأجلّاء آثاره وتمسكوا بهديه ، كما سار التابعون على نهجهم في الحرص على القرآن حفظاً وعملاً وتلاوةً وتعليماً ودعوة ، وكذا تابعوهم من بعدهم باخلاص وصدق حتى أيامنا هذه ولما حصلت بيعة العقبة الثانية أرسل النبي صلى الله عليه وسلم الصحابي الشاب مصعب بن عمير الى المدينة ليعلم الأنصارَ القرآنَ ويفقههم في الدين . فنزل

(١) رواه النسائي ـ كتاب الصلاة ـ باب رفع الصوت بالقرآن .

مصعبُ على أسعد بن زرارة ، وقام بمهمته بدأب مستمر فكان يسمى : المقرىء والقارىء .

وقد بعث الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل قاضياً الى اليمن ليعلم الناسَ القرآن وأحكامَ الشريعة الاسلامية ، ويقضي بها في الخصومات[1] .

وولى النبي صلى الله عليه وسلم عمرو بن حزم الخزرجي النجاري عاملاً على نجران ليفقههم في الدين ، ويعلمهم القرآن ، ويجبي منهم الصدقات ، وقال عبادة بن الصامت (كان الرجلُ اذا هاجرَ دفعهُ النبي صلى الله عليه وسلم الى رجلٍ منا يعلمه القرآن . وكان يُسمَعُ لمسجدِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ضجةٌ بتلاوة القرآن حتى أَمَرَهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخفضوا أصواتهم لئلا يتغالطوا) .

ولو تطلعتَ الى الصفّة في مسجدِ النبي صلى الله عليه لوجدتَها مدرسةً دائمةً لقراءة القرآن إذْ راحَ فقراء الصحابةِ ، ممن لا أهل لهم ؛ يأوون إليها يتدارسون القرآن ويحفظونه ، ثم ينطلقون الى أرجاء البلاد فيعلمونه للناس . وقد وقف جماعة من الصحابة أنفسهم للاقراء بالمدينة بأمر النبي صلى الله عليه وسلم حتى امتلأت المدينة بالقراء .

وتنافس الصحابة في اتقان حفظ القرآن وتلاوته ، ونبغ بعضهم أكثر من بعض في اتقان الحفظ وروعة التلاوة وبلغوا الذروة في حسن تلقينه لاخوانهم واستحفاظهم إياه . وساعدتهم ظروفهم على التفرغ لذلك ، فوجه الرسول صلى الله عليه وسلم أنظار الصحابة الى النبغاء ليأخذوا عنهم . روى البخاري

(١) تلاوة القرآن المجيد ـ لأستاذنا الجليل عبد الله سراج الدين ص ١٠٤ .

أن عبد الله بن عمرو قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « خذوا القرآن من أربعة من عبد الله بن مسعود ؛ وسالم ؛ ومعاذ ؛ وأُبيّ بن كعب »[1] .

إن عناية الرسول صلى الله عليه وسلم بتعلم الصحابة القرآن أثارت فائق اهتمامهم ، لما للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم من مكانة في قلوبهم ، ولما للقرآن العظيم من آثار من أفئدتهم . لذلك حصل ما رأيت من مزيد الاعتناء بحفظه وتعليمه وصيانته ، فصار الواحد منهم يلتزم بتلاوة قدر محدود من القرآن يومياً حتى يختمه . فاذا منعته الشواغل عن تلاوة هذا الورد نام كاسف البال لما فاته من أجرٍ عظم . وقد أرشدهم أمام المتقين الى تدارك هذا الثواب . قال صلى الله عليه وسلم : « من نام عن حزبه من الليل أو عن شيء منه ؛ فقرأه ما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر ؛ كُتب له كأنما قرأه من الليل»[2] .

---

(١) صحيح البخاري ـ كتاب فضائل القرآن ـ باب القراء من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم .
ملاحظة : وفي هذا الباب حديث لأنس رضي الله عنه يوهم ظاهرُهُ اقتصار اكتمال حفظ القرآن أيام النبي صلى الله عليه وسلم على أربعة من الصحابة . وليس المراد ذلك الظاهر ، فانه يعارضه حديث آخر لأنس نفسه عند البخاري أيضاً في نفس الباب . وهو معارض أيضاً بأحاديث كثيرة في الصحيحين وغيرهما . وقد ذهب العلماء في المراد منه مذاهب متعددة . ونرى أن مراده الاشارة الى أعظم الصحابة اتقاناً للحفظ وروعة في محاكاة تلاوة الرسول صلى الله عليه وسلم ذاتها . فهم أجدر بالأخذ عنهم ، وغيرهم ـ في نظر أنس ـ لم يبلغ في هذا التفوق ذروتهم ، وسنفصل الموضوع في مقال آخر بإذن الله ، وقد تصدى لتبيانه علماء أجلاء من المتقدمين والمتأخرين. (انظر فتح الباري جـ ٩ ص ٤٧ /٥٣ والاتقان حـ ١ ص ١٩٩ /٢٠٤ ومناهل العرفان حـ ١ ص ٢٣٦/٢٣٨ والبيان / د . عبد الوهاب غزلان ١٥٢/١٥٨ والمدخل ٢٦٤/٢٦٦) .

(٢) أخرجه الجماعة إلا البخاري عن عمر بن الخطاب . انظر صحيح مسلم ـ كتاب صلاة المسافرين ـ باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض . وسنن النسائي ـ كتاب قيام الليل وتطوع النهار جـ ٣ ص ٢٥٩ وسنن الترمذي ـ كتاب الصلاة ـ باب ما ذكر فيمن فاته حزبه من الليل . وسنن أبي داود ـ كتاب الصلاة ـ باب من نام عن حزبه .

أساس التواتر

غدا حفظ القرآن المجيد ومذاكرته ظاهرة عامة في أيام النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي أصحابه من بعده ؛ في أبنائهم وأهليهم وإخوانهم . . . واشتهر أفذاذ منهم بإقراء القرآن وتعليمه ، ونصبوا أنفسهم لذلك ووقفوا جل أعمارهم عليه . . . فراحت قلوب أهل الايمان وأفئدتهم تهوي إليهم ، تنهل من المورد العذب الصافي الخلاب ، حتى أطبقت على حفظ القرآن العظيم جمهرة هم من خيار الناس في كل طبقة . . . بدءاً من الطبقة الأولى ؛ طبقة الصحابة رضوان الله عليهم .

فقد رأيت كيف تضافرت العوامل الفعالة على استحفاظهم كتاب الله تعالى حتى تحقق فيهم أساس التواتر في نقل القرآن العظيم « والخبر المتواتر : ما رواه جمع تُحيل العادةُ تواطؤَهم على الكذب عن جمع مثلهم من أول السند إلى منتهاه » . واستمر تواتر حفظ القرآن من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى أيامنا هذه . والخبر المتواتر يفيد اليقين كمن يُشاهد الأمر بنفسه فإذا سمعتَ القرآن الكريم أو قرأته فإنك إنما تسمع أو تقرأ النص الذي سمعه وكتبه الصحب الكرام من فم النبي صلى الله عليه وسلم . فقد تجلى نص القرآن العظيم بقوة اليقين الباهر ، فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وما ذاك إلا بحفظ وتقدير العزيز العليم .

تلك خصيصة عظيمة خالدة للذكر الحكيم على سائر الكتب السماوية ، ومزية كبرى للأمة الاسلامية على سائر الأمم الانسانية ، وبها تحقق وعد الله الحق المبين المنزل على سيد المرسلين ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾[1] .

---

(١) سورة الحجر ٩ .

العناية بتعليم القرآن في أجيال التابعين

وامتد هذا الأمر بعد حياة النبي صلى الله عليه وسلم ، فقد راح الصحابة يُعنون بتعليم القرآن ، فقامَ معاذُ بن جبل وعبد الله بن عباس رضي الله عنهما بتعليم القرآن ونشر علومه في مكة المكرمة لأناس كثيرين لا يُحصون . ونهض عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في مسجد الكوفة بتعليم الناس القرآن حتى بلغ عدد الثقات الذين أخذوا عنه القراءة مباشرةً أو بالواسطة نحو أربعة آلاف قارىء .

ونَصبَ أبو موسى الأشعري رضي الله عنه نفسه لتعليم القرآن في مسجد البصرة .

قال أبو رجاء : فكان يُقعدنا حِلَقاً حِلَقاً يُقرئنا القرآن .

روى الإمام مسلم عن أبي الأسود الدؤلي رحمه الله قال : بعث أبو موسى الأشعري إلى قراء أهل البصرة ، فدخل عليه ثلاثمائة رجل قد قرؤوا القرآن : فقال : « أنتم خيار أهل البصرة وقراؤهم . فاتلوه ، ولا يطولنَّ عليكم الأمدُ فتقسوا قلوبكم ، كما قست قلوب من كان قبلكم » الحديث[1] .

وقام أبو الدرداء يعلم الناس القرآن يومياً في جامع دمشق من طلوع الشمس الى الظهر ويقسم المتعلمين عشرة عشرة ، ويُعينُ لكل عشرةٍ عريفاً يعلمهمُ القرآن ، وأبو الدرداء يشرف على الجميع حتى إذا غلط بعضهم في شيء أو اشتبهوا في حرف رجعوا إليه ، كما ورد في تاريخ ابن عساكر .

وسار القراء من بعدهم على هذا النهج حتى صار للمقرىء ابن عامر في دمشق أربعمائة عريف ينهضون بتعليم القرآن باشرافه وتوجيهه[2] .

---

(١) صحيح مسلم ـ كتاب الزكاة ـ باب لو أن لابن آدم واديين لابتغى ثالثاً ـ حديث رقم ١٠٥٠ .
(٢) تلاوة القرآن المجيد ـ عبد الله سراج الدين ص ١٠٤/١٠٥ .

غاية الشغف بتلاوة القرآن

بدرتْ لدى الحفاظ ظاهرة ولوع عظيم بختم القرآن ، منذ عصر النبي صلى الله عليه وسلم ، حتى راح عبد الله بن عمرو بن العاص يختم كل ليلة ، فأرشده الرسول الكريم رفقاً بنفسه أن يختم كل سبع ليال ختمة ، كما روى البخاري وغيره ، وفي رواية الترمذي في خمس وفي روايات أخرى في ثلاث ، وصرح البخاري أن أكثر الرواة على سبع . وإليك نص الامام البخاري :

عن عبد الله بن عمرو قال : « أنكحني أبي امرأة ذات حسب ، فكان يتعاهد كنته فيسألها عن بعلها ، فتقول : نعم الرجل من رجل ، لم يطأْ لنا فراشاً ولم يفتشْ لنا كنفاً منذ أتيناه ، فلما طال ذلك عليه ذكر للنبي صلى الله عليه وسلم فقال : الْقني به ، فلقيته بعد ، فقال : كيف تصوم ؟ قلت : أصوم كل يوم . قال : وكيف تختم ؟ قلت : كل ليلة . قال : صمْ في كل شهر ثلاثة ، واقرأ القرآن من كل شهر . قال قلت : أُطيقُ أكثر من ذلك ، قال : صمْ ثلاثة أيام في الجمعة . قال قلت : أطيق أكثر من ذلك . قال : أفطر يومين ، وصم يوماً ، قال قلت : أطيق أكثر من ذلك . قال : صمْ أفضل الصوم صومَ داود ، صيام يوم وإفطار يوم ، واقرأ في كل سبع ليال مرة . فليتني قبلت رُخصة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذاك أني كبرت وضعفت فكان يقرأ على بعض أهله السُبع من القرآن بالنهار ، والذي يقرؤه يعرضه من النهار ليكون أخف عليه بالليل ، وإذا أراد أن يتقوى أفطر أياماً وأحصى ، وصام مثلهن كراهة أن يترك شيئاً فارق النبي ؛ صلى الله عليه وسلم ؛ عليه »[1] .

(١) صحيح الإمام البخاري ـ كتاب فضائل القرآن ـ باب في كم يُقرأ القرآنَ .

وفي رواية عند أبي داود : « اقرأ في سبع ولا تزيدن على ذلك »[1] .

وذكر الامام ابن حجر أنه ثبت عن كثير من السلف أنهم قرؤوا القرآن في أقل من ثلاث . ثم بين وجه الجمع بين الروايات وأن النهي لم يكن للتحريم ، إنما هو إرشاد وترفق . فقال : « فلا مانع أن يتعدد قول النبي صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمرو ذلك تأكيداً ، ويؤيده الاختلاف الواقع في السياق . وكان النهي عن الزيادة ليس على التحريم ، كما أن الأمر في جميع ذلك ليس للوجوب ، وعرف ذلك من قرائن الحال التي أرشد اليها السياق ، وهو النظر الى عجزه عن سوى ذلك في الحال أو في المآل . وأغرب بعض الظاهرية فقال : يحرم أن يقرأ القرآن في أقل من ثلاث . وقال النووي : أكثر العلماء على أنه لا تقدير في ذلك ، وإنما هو بحسب النشاط والقوة ، فعلى هذا يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص . والله أعلم »[2] .

وقد عني السلف الصالح رحمة الله عليهم بتلاوة القرآن عنايةً فائقةً يتدارسون ويتلونه حق تلاوته آناء الليل وأطراف النهار وكانت بيوتهم تُدوي بقراءة القرآن كباراً وصغاراً ، رجالاً ونساءً سائر أيام السنة وفي رمضان خاصة ، حتى كان بعضهم يختم القرآن في كل يوم وليلة خَتمة ، ومن هؤلاء الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه . قال القاضي أبو يعلى : (وقد ختم إمامنا أحمد بن حنبل القرآن في ليلة واحدة بمكة مصلياً به) قلت : وفي بلدنا حلب الشهباء في زماننا هذا رجل عليه سيماء السلف الصالح يختم القرآن ختمةً في إحدى ليالي رمضان مُصلياً به قيام ليل رمضان إماماً بالناس في الجامع .

ومن السلف الصالح من كان يختم القرآن في اليوم والليلة ختمتين . ومنهم من كان يختم ثلاث ختمات ، ومنهم سُليم بن عِتْر ، قاضي مصر في

(١) انظر روايات الحديث في جامع الأصول جـ ٢ ص ٤٧١/٤٧٤ .

(٢) فتح الباري جـ ٩ ص ٩٧ .

خلافة معاوية رضي الله عنهما ، ورُوي أنه كان يختم في الليلة أربع ختمات . ذكر ذلك الإمام النووي ثم قال (هذا أكثر ما بلغنا في اليوم والليلة)[1] .

حفظ القرآن ظاهرة عامة في عصر النبوة وبعده

رأيت أن عوامل كثيرة قد تضافرت على تيسير حفظ القرآن في صدور الصحابة واثارة حماستهم للاستكثار من تلاوته آناء الليل وأطراف النهار . فاتخذوا لأنفسهم نظاماً دورياً كل يوم استمراراً في تلاوته ومذاكرته . إن هذه العوامل تدفع أصحابَ حرارةِ الايمان والقلوب الحية في كل زمان إلى بذل غاية الوسع في استحفاظ القرآن العظيم والعمل به ، لقد أمعن الصحابة الكرام في الاهتمام بالقرآن حتى صار حفظ القرآن وتلاوته ظاهرة عامة مستمرةً في حياتهم رضي الله تبارك وتعالى عنهم ، وجزاهم عن سائر المسلمين كل خير . قال أبو الزناد رضي الله عنه : « كنتُ أخرج من السحر الى مسجد النبي صلى الله عليه وسلم فلا أمرُّ ببيت الا وفيه قارىء ، وكنا ونحن فتيان نريد أن نخرج لحاجة فنقول : موعدكم قيام القراء » ومضتْ عزيمة الصحابة إلى تعليم القرآن أولادهم وأهليهم وأخوانهم . . . وهكذا صار حفظ القرآن ظاهرة عامة في المسلمين أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم .

لقد وقف كثير من الصحابة أوقاتهم لاستظهار القرآن واستذكاره وتعليمه . وأكثر هؤلاء تفرغاً لهذه المهمة هم أهل الصفة . وهم أضياف الله آوَوْا إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم يعملون ما يتيسر لهم من الأعمال كالاحتطاب ونحوه ، ويقومون الليل بتلاوة القرآن وتدارسه وتعليمه

(١) التبيان في آداب حامل القرآن ـ الباب الخامس ـ الفصل الثاني وانظر سير أعلام النبلاء ـ للذهبي جـ ٦ ص ١٣٣/١٣١ ترجمة سُليم بن عتر ، وتلاوة القرآن المجيد ص ١٠٧ /١٠٨ .

لأخوانهم . وكانوا على استعداد دائم للتوجه الى الجهاد في سبيل الله في أي لحظة يأتيهم فيها أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم . وعلى استظهار القرآن وتدارسه دأب أيضاً رجال الأعمال والزراعة من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين . يعطيك صورة حية عن صدق ولعهم بالقرآن وقوة تعلقهم به ما رواه الامام البخاري عن عمر بن الخطاب رضي الله عنهم أنه قال : (كنتُ أنا وجارٌ لي من الأنصار في بني أمية بن زيد[1] ، وهي من عوالي المدينة ، وكنا نتناوب النزول على رسول الله صلى الله عليه وسلم ينزل يوماً ، وأنزل يوماً . فاذا نزلتُ جئتُهُ بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره ، وإذا نزل فعل مثل ذلك . . .) .

وكان الحفاظ يُسمَّون يومئذ : القراء . عن أنس رضي الله عنه أنه قال : (بعث النبي صلى الله عليه وسلم سبعين رجلاً لحاجة ، يقال لهم : القراء . فعرض لهم حيان من بني سُليم ، رِعْل وذَكْوان ، عند بئر يقال لها : بئر معونة . فقال القوم : والله ما إياكم أردنا ، انما نحن مجتازون في حاجة النبي صلى الله عليه وسلم ، فقتلوهم . فدعى النبي صلى الله عليه وسلم شهراً في صلاةِ الغداة ، وذلك عند بدء القنوت وما كنا نقنت)[2] .

كما راع عمر بن الخطاب مقتل سبعين آخرين من كبار القراء في موقعة اليمامة مع مسيلمة الكذاب وقومه . .

فنهض عمر الى الخليفة أبي بكر رضي الله عنه فقال : (إن القتل قد استحرَّ يوم اليمامة بقراء القرآن ، وإني أخشى إن استحر القتل بالقراء بالمواطن

---

(١) يريد : في ناحيتهم التي يسكنونها في المدينة .

(٢) رواه البخاري ـ كتاب الوتر ـ باب القنوت قبل الركوع وبعده ، ومسلم ـ كتاب المساجد ـ باب استحباب القنوت في جميع الصلوات ، وأبو داود ـ كتاب الصلاة باب القنوت في الصلوات ، والنسائي ـ كتاب افتتاح الصلاة ـ باب القنوت بعد الركوع .

فيذهب كثير من القرآن ، واني أرى أن تأمر بجمع القرآن . . .)[1] .

ونبغ بعض الصحابة أكثر من غيرهم في جفظ القرآن وتلاوته على الطريقة النبوية وصاروا لبراعتهم فيه وتفوقهم في تلقينه وتعليمه أكثر أهلية لتلقي المسلمين عنهم كتاب ربهم عز وجل ، فأمر الرسول المسلمين بذلك فقال : (خذوا القرآن من أربعة ، من عبد الله بن مسعود وسالم ومعاذ وأُبيّ بن كعب)[2] ، وقد قام صحب آخرون مع هؤلاء بإقراء اخوانهم من الصحابة ، منهم : عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وزيد بن ثابت وأبو الدرداء وأبو موسى الأشعري . . ومعلوم أن آخرين من الصحابة كانوا من قراء القرآن ، كأبي بكر وعمر وعبد الله بن عمرو بن العاص وغيرهم كثير .

أما تواتر حفظِ القرآنِ العظيم سطراً وصدراً **بعد توزيع المصاحف العثمانية على الأمصار** الاسلامية ، فانه أمر وثيق شهير لدى المؤمنين والمعاندين على حد سواء . والفضل ما شهدت به الأعداء وسنجمل الكلام عنه بعد حين ، ولعلنا نوفق الى تبيانه في بحث قادم إن شاء الله .

وقد رأيتَ في بحثنا هذا قواطع الأدلة على تواتر حفظ القرآن في الصحابة منذ تلقوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم الى أن تم تدوينه وتوزيع المصاحف . والآثار كثيرة وفيرة متعاضدة الدلالة على أن حفظ القرآن ظاهرة إيمانية ثقافية اجتماعية عامة الانتشار بين صفوف الصحابة رضي الله عنهم ، وبالتالي في التابعين من بعدهم . وقد دلَّك استشهاد الحفاظ السبعين في بئر معونة ومثلهم ـ بل أكثر منهم ـ في اليمامة ، وتخوف عمر من اشتداد القتل في الحفاظ في مواطن كثيرة ، دَلَّك ذلك وغيره على كثرةِ حفاظِ القرآن المجيدِ ،

---

(١) رواه البخاري بطوله : كتاب فضائل القرآن ـ باب جمع القرآن .

(٢) رواه البخاري : كتاب فضائل القرآن ـ باب القراء من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم .

وعلى تواترِ نقله وضبطه وإتقانه منذ عصر النبي صلى الله عليه وسلم وعصر الصحابة رضي الله عنهم . . . فصرنا على يقين عظيم من أمر الكتاب العزيز وتحقق وعد الله تبارك وتعالى : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون ﴾[1] .

حفظ القرآن من دلائل الاعجاز والنبوة

لقد تيقنا أن الله جل شأنه قد هيأ لكتابه العزيز أكمل أسباب الحفظ المتقن المضبوط ، فحفظته في الصدور الجموع الكثيرة المتعاقبة ، وتناقلته ثقات الأُمة مكتوباً في السطور ، متحدَّ النصّ لا اختلاف فيه ، ولقد انقضى على تنزل القرآن أربعة عشر قرناً ، ولم يزل القرآن بحمد الله مصوناً محفوظاً متواتراً ، وهذا من الدلائل المنيعة على نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . وقد عده القاضي عياض رحمه الله وجهاً من أوجه إعجاز القرآن العظيم ، فقال :

(من وجوه اعجازه المعدودة . كونه آيةً باقية لا تُعدم ما بقيت الدنيا مع تكفل الله تعالى بحفظه ، فقال : ﴿ إنا نحنُ نزلنا الذكر وانا له لحافظون ﴾ ، وقال : ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . . ﴾ الآية ، وسائر معجزات الأنبياء انقضت بانقضاءِ أوقاتها فلم يبقَ إلا خَبَرُها)[2] .

وقد أفرد الله القرآن من بين سائر كتبه بخصوص هذا الحفظ ، بينما لا تجد أحداً من أصحاب الديانة يحفظ كتاب نبيه غيباً تجد وفرة حفاظ القرآن الضابطين المتقنين الى زماننا هذا ، وتجد فيهم جمهوراً غفيراًأعاجم لا يعرفون معاني اللغة العربية !! وهذه آية إلهية عظيمة ظاهرة تبث علم اليقين في كل أمة

(١) سورة الحجر : ٩ .

(٢) الشفاء ـ للقاضي عياض ص ٢٣٢ .

مسلمة أن وعد الله قد تحقق بحفظ هذه المعجزة الخالدة .

قـال الشاعر :

جاء النبيونَ بالآياتِ فانصرمتْ وجِئتنـا بكتـاب غيـر منصـرم
آياتُه كلمـا طالَ المـدى جدد يـزينهن جمال الحق والقـدم

ولا شك أن قصداً إلٰهياً عظيماً يكمن في حفظ القرآن متواتراً ، وضمان استمرار حفظه سليماً للناس ، وهو استمرار المعجزة وخلودما وبقاء الهداية ما بقي الليـل والنهار لتقـوم الحجةُ البـالغةُ على النـاس في كـل زمن ، تلزمهم الايمان بدين الله تعالى والعمل بما في كتابه الكريم من شريعة عالمية خـالدة على غاية الصلاحية لكل زمان ومكان[٢] .

(٢) البرهان في علوم القرآن ـ للزركشي ج ١ ص ٢٣٣ ـ ٢٤٣ والاتقان للسيوطي جـ ١ ص ٥٧ الى ٦٤ ـ والمناهل جـ ١ ص ٢٣٢ ـ ٢٣٣ .
وانظر كتابنا : بينات المعجزة الخالدة ص ١٤٥ الى ١٥٣ .

المصادر والمراجع

القرآن العظيم كتاب الله تبارك وتعالى .
صحيح البخاري . ط مصر .
صحيح مسلم . ط مصر .
سنن ابن ماجه . ط مصر .
سنن أبي داود . ط . مصر .
معالم السنن ـ للخطابي . ط مصر .
جامع الأصول ـ ابن الأثير الجزري . ط . دمشق .
فتح الباري شرح صحيح البخاري ـ ابن حجر ط . السلفية .
الشفاء ـ القاضي عياض . ط . مصر .
منهج النقد في علوم الحديث ـ الدكتور نور الدين عتر ط . دمشق .
الشمائل المحمدية ـ الترمذي ـ ط . التجارية بمصر .
سيرة أعلام النبلاء ـ الذهبي ط . لبنان .
سيرة ابن هشام ـ ط . لبنان .
الجامع لأحكام القرآن ـ القرطبي ـ دار الكتب المصرية .
روح المعاني ـ محمود الآلوسي ـ ط ـ لبنان .
التبيان ـ للنووي ـ ط . لبنان .
البرهان في علوم القرآن ـ الزركشي ـ ط . مصر .
الاتقان في علوم القرآن ـ السيوطي ـ ط . مصر .
مناهل العرفان في علوم القرآن ـ الزرقاني ـ ط . مصر .
مقدمة في أصول التفسير ـ ابن تيمية ـ ط . دار القرآن الكريم .

تلاوة القرآن المجيد ـ عبد الله سراج الدين ـ ط . المدينة .
البيان في مباحث من علوم القرآن ـ عبد الوهاب غزلان ـ ط . مصر .
القرآن الكريم ـ آداب تلاوته وسماعه ـ حسنين مخلوف ـ المجلس الاسلامي الأعلى .
المدخل الى دراسة القرآن الكريم ـ د . محمد محمد أبو شهبة . ط . مصر .
بيّنات المعجزة الخالدة ـ حسن ضياء الدين عتر ـ ط . حلب .